دار جبري بمدينة دمشق

(دراسة تاريخية، أثرية)

دة / لطيفة بورابة

أستاذة محاضرة

معهد الآثار - جامعة الجزائر 2

Résumé : Avec l'arrivée des Ottomans, Damas devint un centre vers lequel convergeaient toutes les caravanes se dirigeant vers la Mecque. Il est à noter cependant qu'après le siècle omeyyade et ce du 7ème au 19ème siècle Damas connut ses heures les plus glorieuses en matière de créations architecturales puisque l'on retrouve aujourd'hui un florilège de belles demeures telles que dar Essibaai, dar Nizam ou encore dar Djabri qui constitue le noyau de cette recherche. C'est dans les ruelles de la ville de Damas telles que El Quaimariyya (petite Inde), de sanghor , et autres quartiers des roses ou encore Essarodja(la petite Istamboul) que se niche un trésor archéologique que certains rencontreront par pur hasard ou alors par le biais d'amis connaisseurs. La maison se trouve dans le quartier Quamariyya, relativement proche de la grande mosquée au sud-est et à l'intérieur de l'enceinte de la ville.

تعود آثار مدينة دمشق العمرانية إلى أربعة آلاف سنة، لهذا يعتبرها البعض أقدم عاصمة في العالم[1]. وقد احتفظ الخواص فيها بتراث معماري هام، خاصة ذلك الذي يعود إلى الفترة العثمانية مع العلم أنه مازال مغمورا والذين يطلعون عليه نزر قليل من المواطنين أو الأجانب إما بطريق الصدفة أو بواسطة بعض الأصدقاء المحبين للتحف الفنية والأثرية، منها دار نظام التي تقع في حارة مئذنة الشحم في حي الشاغور، ويعود تاريخ تأسيسها إلى سنة 1172هـ/1760م[2]، ودار خالد العظم بظاهر دمشق بحي ساروجة، ودار جبري التي تُعدّ نوعا من الهندسة المعمارية المتميزة للدار الدمشقية التي تطورت خلال القرن الثامن عشر الميلادي. وقبل التعرض لدراسة هذا المعلم التاريخي الهام نتعرّف على مدينة دمشق.

1- التطور التاريخي لمدينة دمشق

تقع مدينة دمشق على خط طول 36 º18 شرقا، وخط عرض 33 º30' شمالا وعلى ارتفاع 700م من سطح البحر، تحت جبل قاسيون، الذي يعد من الجبال القاسية المواجهة لجبال لبنان، ولها سهول تمتد من الشمال الشرقي وشرقا نحو الفرات [3].

---

[1] - محمّد غسان عبيد؛ تاريخ دمشق (1137هـ - 1170هـ/ 1724هـ - 1756هـ)، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، 2004، ص 418

[2] - علي حسن؛ دمشق، مصايفها ومنتزهاتها، دار البشائر، دمشق، ط1، (د،ت)، ص127

[3] - Nikita Elissèef ; « Dimashk » .In the encyclopedia of Islam , VII (277-291), Leiden , E.J.Brill , 1991 , p.277

يصف ابن شداد (ت 684هـ/1285م) هذه المدينة :« *بأنّها أحسن بلاد الشام مكانا، وأعدلها هواء، وأطيبها نشرا، وأكثرها مياها، وأغزرها فواكه ويذكر أيضا أنّ لها ناحية تعرف بالغوطة*[4] *طولها مرحلتان*[5] *في عرض مرحلة.*» [6]

أمّا عن اشتقاق اسمها، فيذكر ابن عساكر أنّ «(...) دمشق(...) من دَمْشَقَ، أي سريعة».[7] *ويضيف في موضع آخر «(...) إنّما سميت دمشق بالرومية، وأنّ أصل إسمها (دوومسكس) أي مسك مضاعف لطيبها، ذلك لأن (دوو) للتضعيف و(مسكس) هو المسك، ثم عربت فقيل دمشق.*»[8]

إنّ دمشق المدينة الجميلة العريقة، سايرت الزمن باعتبارها أقدم مدن العالم، غير أن تاريخ تأسيسها غير معروف بالتحديد، لكن الحفريات التي أجريت عام1950م في حي الصالحية[9] أثبتت وجود مركز لتجمع سكاني يعود إلى الألفية الرابعة قبل الميلاد.[10]

كما وجدت آثار لقنوات صرف المياه تعود إلى العهد البرونزي في الألفية الثانية قبل الميلاد واعتبرت هذه الاكتشافات الأثرية جزءا من تاريخ التطور المرحلي لمدينة دمشق.[11]

ولقد مرّت المدينة بفترات تاريخية هامة و متعاقبة بداية من العهد الآرامي(1100ق م-732ق.م)، حيث وقعت تحت حكم الآشوريين لعدة قرون.(12)ثم انتقلت إلى حكم الكلدانيين في القرن السابع قبل الميلاد، وظلت تحت سيطرتهم إلى أن احتلها الفرس في القرن السادس(538ق. م).[13]

---

[4]- اشتق اسم الغوطة من الغيطة، ومعناه الأرض المشبعة بالمياه، والغوطة هي كل ما أحاط بدمشق من قرى مشجرة تُروى من نهر بردى. يقدر طولها بنحو عشرين كيلومتر وعرضها يقدر بـ 10 و15 كيلومترا تقريبا، وبلغت مساحتها 30.000 هكتارا، أنظر: على محمد كرد؛ غوطة دمشق، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1952، ط 2 ،ص9.

[5]- المرحلة هي مسيرة يوم على الراكب بالسير المعتدل، أنظر، على محمد كرد علي، نفسه، ص 12.

[6]- عز الدين أبو عبد الله ابن شداد؛ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق سامي الدهان، المطبعة الكاثوليكية، 1956 دمشق، ص 20.

[7]- أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر؛ مدينة دمشق، مج1، تحقيق صلاح الدين المنجّد، دمشق، مطبوعات المجمع العربي العلمي، ص 17.

[8]- أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر(499-571هـ)؛ مدينة دمشق، مج1، تحقيق صلاح الدين المنّجد، دمشق، مطبوعات المجمع العربي العلمي، ص 18.

[9] - الصالحية هي ضاحية كبيرة على سفح جبل قاسيون، وقد كانت الصالحية منذ نشأتها أيام الدولة النورية الأتابكية في القرن السادس الهجري معقلا للعلم، وبقيت على مكانتها العلمية في العهدين الأيوبي والمملوكي. أمّا في العهد العثماني فاشتهرت ضاحية الصالحية بجامع وتكية السلطان سليم خان الأوّل العثماني أو التكية السليمية 924هـ/1518م، وفيها ضريح الشيخ ابن عربي المشهور: أنظر؛ قتيبة الشهابي و أحمد الإيبش؛ معالم دمشق التاريخية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1996، ص ص 388 و390.

[10]- Nikita Elisseéf; «Dimashk ».In Encyclopedia of Islam, VII, E.J.Brill, Leiden, 1991, p.277

[11]- Ibid ,p.278

[12] - زاك دوروتيه ؛ دمشق، تطور و بنيان مدينة مشرقية إسلامية، نقله من الألمانية إلى العربية قاسم طويل، مراجعة الكواكبي نزيه، وأريانا أحمدالمعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، 2005، ط1، ص15

[13] - عبد القادر الريحاوي؛ مدينة دمشق، دمشق، 1969، ص9

كما شهدت مدينة دمشق تأثير الحضارة الهلنستية عندما سيطر عليها اليونانيون عام 331 ق. م بقيادة الاسكندر المقدوني، ثم عرفت حكم السلوقيون، وذلك بعد أن أسس سلوقس المملكة اليونانية السورية وجعل عاصمتها أنطاكية سنة 312ق.م.[14]

وانتهى النفوذ اليوناني بدخول القائد الروماني بومبه المدينة واحتلها عام 64 ق.م، وبقيت تحت السيطرة الرومانية إلى النصف الأول من القرن السابع عندما فتحت الجيوش العربية الإسلامية المدينة بقيادة أبي عبيدة بن الجراح.[15]

ولقد وصف البلاذري فتح مدينة دمشق من قبل الجيوش الإسلامية فكتب « *أنّ في محرم من سنة 14هـ، فتح المسلمون الغوطة و كنائسها عنوة، وتحصن أهل المدينة (دمشق) وأغلقوا بابها فنزل خالد بن الوليد على الباب الشرقي*[16] *في زهاء خمسة ألف ضمهم أبو عبيدة ..... ونزل عمرو بن العاص على باب توما،ونزل شُرحبيل على باب الفراديس*[17]*ونزل أبو عبيدة على باب الجابية*[18]*، ونزل يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير الباب*[19] *الذي يعرف بكيسان...».* [20]

وفي سنة 63هـ/656م استطاع معاوية أن ينشئ الخلافة الأموية، فجعل دمشق عاصمة لدولته[21]، وكان يدير شؤون الحكم في قصر الخضراء[22]. وبدأت تتحول إلى مدينة عربية مسلمة بصفة تدريجية وحلّ أمراء العرب وكبراؤهم في الدور و القصور التي أخلاها البيزنطيون، وبذلك توزع المسلمون في جميع أحياء المدينة[23]، وإلى هذا العهد ينسب تشييد أكبر أثر معماري حضاري وهو الجامع الأموي الذي يعود إلى العهد الخليفة الوليد بن عبد الملك.

---

[14]- نعمان أفندي قساطلي؛ الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت، 1879، ص 13.

[15] - عبد القادرالريحاوي، المرجع السابق، ص13

[16]- بناه الرومان في عهد الإمبراطور سبتيموس سيفبروس وابنه كاراكالا في أواخر القرن الثاني الميلادي، وكان يسمى قي ذلك الوقت باب الشمس، وكان يتكون من ثلاثة فتحات ذات أقواس، أنظر؛ - عز الدين أبو عبد الله ابن شداد، مصدر سابق، ص 35.

- محمّد غسان عبيد، المرجع السابق ، ص420

[17] - بناه الرومان في الجهة الشمالية من سور دمشق، ويطلق عليه أيضا باب العمارة، يبلغ ارتفاعه 431 سم وعرضه 450 سم، وهو مصفح بالحديد، لقد جدد بناءه في عهد الملك نجم الدين أيوب عام 639هـ/1241م، أنظر؛ - محمّد غسان عبيد، مرجع سابق، ص 421.

[18]- يقع غربي البلد، ولقد اتخذت في الفترة المبكرة خلال عصر الفتوح معسكر، ثم مدينة صغيرة لتجميع جيوش المسلمين لفتح بلاد الشام، يبلغ ارتفاعه حوالي 283 سم وعرضه 306 سم، يراجع؛ - عز الدين أبي عبد الله ابن شداد، نفسه، ص 36.

- محمّد غسان عبيد، المرجع السابق، ص 421.

[19] - بناه الرومان في الركن الجنوبي الشرقي للسور، وبقي هذا الباب مستخدما إلى القرن السادس الهجري، عندما سدّه السلطان نور الدين الزنكي، وفتح بدلا عنه باب الفرج، يراجع؛ محمّد غسان عبيد، مرجع سابق، ص421

[20]- أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري؛ كتاب فتوح البلدان ، مج42، في جغرافيا الإسلامية، مج42 ،إصدار فؤاد سزكين، منشورات تاريخ معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ألمانيا، جامعة فرانكفورت، ص ص120-121

[21]- يوسف جميل نعيسة؛ مجتمع مدينة دمشق، ج1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق 1986 ص 68.

[22]- بني معاوية قصر الخضراء، وجعله دار الإمارة، وهي متاخمة للجامع من جهة القبلة، أنظر: عز الدين أبو عبد الله ابن شداد، مدينة دمشق، ص 37- 38.

[23]- عبد القادر الريحاوي، المرجع السابق، ص 53

وبانتقال الخلافة إلى العباسيين سنة 132هـ/750م، تراجعت مدينة دمشق من مرتبة مركز الخلافة إلى ولاية من ولايات الدولة العباسية التي كانت بغداد عاصمة لها.[24] ويذكر ابن شداد في هذا الصدد: « *كانت بنو أمية تنزل في الخضراء، ظاهر دمشق، فلّما ملك بنو العباس خرّبوا دورهم، وسور دمشق، وعفوا آثارهم، بنوا سورها، ودار إمارة بها، وكانت تسمى القصر.*»[25]

وبقيت مدينة دمشق تحت حكم الولاة التابعين لبني العباس سواء من الحكام الطولونيين الذين سيطروا على مصر و الشام و الثغور المتاخمة للروم منذ سنة 254هـ/868م، أو حكام الدولة الإخشيدية في مصر عام 323هـ/934م، إلى أن سيطرت عليها الجيوش الفاطمية.[26]

غير أن المدينة عرفت أصعب فتراتها في ظل حكم الفاطميين، وذلك لاختلاف المذهب بين الحاكم و الرّعية، فنتيجة للثورات الداخلية نشبت حرائق أدت إلى إتلاف أجزاء كبيرة من أحياء المدينة و أرباضها، وتم ترميم الدور بطريقة عشوائية بحيث لم يراع الهيئة العامة للمدينة.[27]

وفي عام 1076م انتزع الأمير السلجوقي " تتش" من الفاطميين. ثم خضعت دمشق لحكم نور الدين زنكي(549هـ/1154م)، ويذكر ابن شداد «... *أنه لما ملك نور الدين بن زنكي دمشق بنى بها دارا حسنة عرفت باسمه،وأنشأ بها دارا تسمى دار المسرّة، في غاية الحسن وأنشأ بجوارها حماما.*»[28]

بعده آلت المدينة إلى حكم صلاح الدين الأيوبي عام(571هـ/1176م) فاتخذها مركزا استراتيجيا لعملياته العسكرية ضد الصليبيين. ويذكر المستشرق جون سوفاجيه (J Sauvaget) أن مدينة دمشق عرفت في عهد الأمراء النوريين و الصلاحيين عصر النهضة الحقيقي، حيث حظيت بأجمل المنشآت العمرانية، وأصبحت مركزا هاما للإشعاع الثقافي و الديني فضلا عن أهميتها العسكرية، فأقيمت بها منشآت مدنية، ودينية و عسكرية، و ما تزال آثار حركة البناء في أيام نور الدين ماثلة للعيان إلى يومنا هذا في المدينة القديمة، ومن أشهر مبانيه بيمارستان نور الدين (الذي يحتضن حاليا متحف الطب و العلوم عند العرب)، والذي يقع غربي الجامع الأموي. يضاف إلى هذا أنه أنشأ أول دار للحديث "النورية"[29]، واستمر الحكم الأيوبي لمدينة دمشق إلى أن غزاها التتار عام 1260[30]، حيث دخلت مرحلة جديدة من تاريخها، وأمام هذا الخطر الخارجي أسرع مماليك السلطنة الأيوبية في مصر لنجدة دمشق، وفي عهد الأميرين الكبيرين بيبرس (658هـ/ 1260 م) (676 هـ / 1277 م) و قلاوون أصبحت دمشق تابعة لحكم القاهرة ثانية.

---

[24] - - زاك دوروتيه، مرجع سابق، 34

[25] - عز الدين أبوعبد الله ابن شداد، مدينة دمشق، ص 37.

[26] - عبد القادرالريحاوي، مرجع سابق، ص15-16

[27] J.Sauvaget; Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas, p.457

[28] - عز الدين أبو عبد الله ابن شداد، مصدر سابق، ص38

[29] - - زاك دوروتيه، مرجع سابق، ص37 و

Nikita Elisseéf ; «Les monuments de Nur Ad-din».In Bulletin d'études Orientales, tXIII, Institut Français de Damas ,Damas,1949-1951, p.5

[30] J.Sauvaget,op,cit,p.458

غير أن العهد المملوكي عرف صراعات داخلية دموية على السلطة، ولم تشهد المدينة تطورا حضاريا يمكن التنويه به، ماعدا النشاطات التجارية التي كانت مزدهرة.[31]

وبظهور القوة العثمانية على الساحة السياسية، دخلت مدينة دمشق تحت سيطرة سليم الأول عام 922هـ /1516 م إثر معركة مرج دابق[32]، وتبوأت مكانة هامة حيث أصبحت مركزا لتجمع القوافل المتجهة إلى الحج يقصدها الحجاج من مختلف أنحاء الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف بين أوروبا، وآسيا، وإفريقيا.[33]

وقد وصف الرحالة الأوروبي روبين باسولا (Robbin Bassola)، دمشق العثمانية عندما زارها سنة 929هـ/1522م قائلا«*(...) دمشق مدينة واسعة(...) وهي محاطة بأسوار محصنة قوية، وبخندق، كما نجد قلعة مسوّرة(...) وأسوارا جميلة، وأسواقا مغطاة تحتوي على كل المواد الأساسية. وتمتاز دمشق بكثافة سكانية معتبرة، وبنشاط تجاري كثيف، كما نجد فيها شتى أنواع النشاطات، سواء التجارية منها أو الحرفية، وربما تفوق مدينة البندقية في ذلك الوقت، ولا سيما تجارة وحرفة الحرير اللتين كانتا شائعتين ودورها الرائعة في الداخل، تزخر بالحدائق والنافورات، (...) في وسط المدينة بالقرب من ساحة البضائع يتمركز مسجد يعد معلما كبيرا.*»[34]

2- دور مدينة دمشق

شهدت مدينة دمشق أزهى فتراتها المعمارية في العهد العثماني، ويتجلى ذلك في الدور الفاخرة المشيدة والتي ترجع إلى القرنيين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، فكانت ثمرة الحضارة العربية الإسلامية، وفي ذات الوقت تعكس أجزاءها الفنية مزيجا مميزا من الحضارات المختلفة التي عرفها الإنسان العربي مشرقا ومغربا، كالتأثير الهيلنستي والروماني والفارسي.

وصف الرحالة الفرنسي الأثري ايزودور دُور مدينة دمشق بعد أن عاين عددا منها معاينة الخبير المتفحص، وكان قد زار المدينة عام 1830م :« *فأنت تشاهد وراء تلك الجدران المتواضعة فناء الدار*

---

31 Ibid,p.463

32 -دابق ،بكسر الباب، قرية قرب مدينة حلب من أعمال عزاز، بينها وبين حلب أربعة فراسخ ، عندها مرج معشب، نزه كان ينزله بنو مروان، يراجع؛

- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي؛ معجم البلدان، مج 2،دار صادر، بيروت،1995 ، ط1، ص416

33 - أدت قافلة الحج الشامي دورا هاما في تاريخ دمشق، وبلاد الشام بصفة خاصة، من النواحي السياسية، والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية، وكانت لها أهمية خاصة في الدولة العثمانية لأن السلطان العثماني منذ فتحه لمدينة حلب في سنة 922هـ/1516م، اتخذ لقب حامي الحرمين الشريفين، أنظر؛

- عبد الكريم رافق؛ "قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني" في مجلة الدراسات التاريخية بدمشق،ع1981،6، ص ص 5 22.

34 - Pascal; Damas à la fin du XVI[e] siècle, d'après trois actes de waqf ottomans, t.1, institut Jean – Paul Français de Damas , Damas, 1983, p .11.

الجميل، وقد رصفت أرضه بالرخام أو البلاط المزاييك، وفي وسط الفناء بركة ماء محاطة بأشجار الرمان والبرتقال والليمون وعرائش الياسمين(...) وفي فناء الدار عدّة أبواب ذات أقواس في أعلاها، تفضي إلى غرف مغطاة الجدران بالخشب الموشى بالذهب، أو المزين بالنقوش البارزة، أو صور النباتات الملونة ولكل من هذه الغرف استعمالها الخاص، فمنها ما ينفرد به الرجال، ومنها ما اختص بالنساء، أما سقوف الدور فتسند إلى أعمدة من خشب الحور[35]، يطوق بها إفريز من النقوش العربية(...)»[36]

3- دار جبري

تقع دار جبري[37] في حي القمرية[38] بجادة الصواف داخل سور المدينة إلى الجنوب الشرقي من الجامع الأموي.[39]

و يصفها الحصيني في كتابه السابق قائلا: «*كان أكثر رجال دار جبري يشتغلون في التجارة بين دمشق و الحجاز منهم (سامي أفندي)، صاحب الدار الشهيرة في حي القمرية التي فيها قاعة نفيسة تعد من آثار دمشق الشهيرة.*»[40]

ولا يعرف تاريخ تأسيس دار جبري، لكن النقيشة التي وجدت في القاعة الكبيرة تحتوي على تاريخ منقوش ب 1157هـ /1744-1745م. [41]

---

[35]- خشب الحور (Peuplier) هو جنس نبات من الفصيلة الصفصافية ، ويسمى باللسان النباتي بوبلوس populus، ويمتاز خشب الحور باندماج الياقه، وسهولة غرس أجسام معدنية فيه على الرغم أنه يعتبر من الأخشاب الصلبة، كما يمتاز بقابلية للصقل وتحمل التأثيرات الجوية، أنظر؛- البستاني (بطرس)؛ "حور". في دائرة المعارف، 1971، مجلد7، ص261

[36]- أحمد طربين؛ "مظاهر من عمران دمشق في القرن التاسع عشر". في مجلة دراسات تاريخية وأثرية، دمشق، 1980، ص 104 -105.

[37] - تعتبر عائلة جبري من الأسر القديمة في دمشق، و تلقب ببني جبري كان جدها الأعلى (يوسف آغا جبري) آغة اليرلية بدمشق، و موازاة لذلك كان من رجال العلم و الفضيلة في هذا البيت و معه أيضا الشيخ (سليم ابن عثمان جبري الحنفي) الذي اشتغل في العلم بعد أن نال إجازة العلماء، فتصدر للتدريس في الجامع الأموي، ثم تولى نيابة التركة في المحكمة الشرعية، ثم رحل لدار السلطنة، و تقلد القضاء الشرعي في أقضية دمشق و بيروت، و كان فقيها فاضلا محبوبا عند العلماء لأنس مجلسه و لطافة حديثه، مات بعد خروج الأتراك سنة 1383هـ ، و من التجار هذا البيت أيضا (درويش أفندي، و هو والد الشاعر الكاتب الشهير (شفيق بك) رئيس ديوان وزارة المعارف، و صاحب القصيدة المشهورة التي خاطب بها ملك الحجاز(الشريف حسين بن علي)بعد استيلاء سلطان نجد الإمام عبد العزيز آل سعود على مكة، يراجع؛

- محمد أديب آل تقي الدين الحصيني؛ منتخبات التواريخ لدمشق، ج1، قدم له كمال سليمان الصليبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979، ط1، ص ص894،895

[38] - تنسب تسميته إلى المدرسة القمرية التي أنشأها (الأمير ناصر الدين أبو المعالي حسين القميري الكردي) أحد قادة الملك الناصر (يوسف الأيوبي)، والمتوفي سنة 665هخ، و كان سوق القمرية الشهير يشكل همزة الوصل بين المدينة و غيرها، و ذلك بما كان يتمتع به من نشاط تجاري و إبداع فني و صناعي، حتى اشتهر هذا الحي الهم باسم الهند الصغيرة ،يراجع كلا من ؛

-أبو أذان ؛ " حي القمرية في القرن التاسع عشر ". في الندوة دمشق، دراسات تاريخية و أثرية ،1980، ص177

- قتيبة الشهابي؛ معجم دمشق التاريخي، ج1، منشورات وزارة الثقافة، 1999 دمشق ،ط1، ص221

[39] - زكريا محمد كبرت؛ البيت الدمشقي خلال العهد العثماني، ج2، مؤسسة الصالحاني، دمشق، 2000 ، ط1، ص24

[40] - محمد أديب آل تقي الدين الحصيني، مصدر سابق، ج1، ص8950

[41]- Nada AlHassan :Bayt Jabri, étude d'une demeure Damascene, centre d'études pour la conservation du patrimoine architectural et urbain, Damas,1993, p.34

تتكون دار جبري من صحن مركزي مستطيل الشكل، تحيط به فضاءات مختلفة، فالجهة الشمالية يشغلها الإيوان[42]، والجهة الجنوبية تشغلها القاعة، وكلاهما يبلغ علو طابقين، أما الجهتان الشرقية و الغربية فتبلغان علّو طابق ونصف (ما يعادل دورا منخفضا)، و يتخلل الجهات الشرقية و الغربية والشمالية رواق في الطابق الأول.[43]

وتحمل دار جبري كل الخصوصيات الأساسية للدار الكبيرة خلال القرن الثامن عشر، وما يوحي بذلك هو موقعها المميز قرب المسجد الأموي، و سوق مدحت باشا (الذي يقع على الطريق الروماني و الذي كان يقطع المدينة من شرقها إلى غربها)، و كذا ثراء هندستها المعمارية و زخرفتها.

و حسب السجل العقاري لسنة 1928م، فإن دار جبري كانت تحتوي على جناحيين: الحرملك والسلملك.

الحرملك: وهو الجناح المخصص للأسرة، ويتوسطه صحن واسع ببركته ونافوراته ومزروعاته حوله الغرف ، وأهمها القاعة والإيوان حيث يتقابلان من الشمال والجنوب، ثم المطبخ والخدمات.

و السلملك: وهو الجناح المخصص للضيوف والذي يحتل الجزء المباشر والقريب من مدخل البيت العام. إضافة إلى صحن صغير شمال شرقي الدار كان بمثابة جناح للخدملك.[44]

و القسم الرئيسي (السلملك) فهو المحور الرئيسي لهذه الدراسة، بسبب إمكانية الدخول إليه، فهو مهجور منذ خمس عشرة سنة، ويمكن الدخول إليه عبر شارع الصواف جنوب الحارة، وقد استغلت بعض قاعاته في الطابق الأرضي كمخزن أو ورشات خلال سنوات عدّة، أما باقي الدار فقد هجر نهائيا منذ ثماني سنوات.[45]

وصف مخطط دار جبري : (مخطط رقم 01)

إن المظهر الخارجي لدار جبري يتسم بالبساطة مقارنة مع ما يوجد بالداخل، فنجد الباب الرئيسي للدار مندمجا في إطار من الحجر المنحوت الأسود البازلتي ومزخرفا بحجارة بيضاء كلسية، وهذا الإطار

---

42 - ينفتح الإيوان على الصحن بقوس كبير منكسر، وغالبا ما يكون مزخرف السقف بزخارف هندسية، أو بالسنج أو الأبلق، أما سقف الإيوان فهو شاهق يعادل ارتفاع طابقين، حيث لا يعلوه بناء آخر، ويسمى (صالون الصيف)، أثث بالأرائك والمفروشات المعبر عن الرقي الحضاري لبلاد الشام، ولأنه ظليل ومحمي من أشعة الشمس المباشرة أضف إلى ذلك محوريته مع البحرة أو الفسقية والباحة السماوية، بالإضافة إلى ارتفاعه العالي الذي يتيح للجالس رؤية كامل الواجهات بدون أي عائق. والإيوان جزء من طراز البناء العربي في سورية منذ القرن الثاني عشر، ولا يقتصر على بيوت السكن فقط بل نجده في الأبنية العامة كالجوامع والمساجد، يراجع كل من؛ Jean claude David; « Alep, dégradations et tentatives actuelles de réadaptation des structures urbaines traditionnelles. ». In bulletin d'études orientales , t .XXVIII, 1975, p. 23

43 - Alhassan,op, cit,p.33

44 Nada Alhassan,op, cit,p.35

45 - حسب الحوار الذي أجريته في ربيع من سنة 2007 مع (رائد جبري)حفيد (محمد طلعت بن نعمان آغا جبري) الذي حوّلها إلى مطعم من أجل الحصول على المورد الكافي لترميمه و إعادة الروح إليه، حيث ذكر لي: " لقد أردتها مطعما تتمتع بالبساطة فلا يشعر الداخل إليها إلا و كأنه مازال جالسا في دار دمشقية عريقة". للإشارة فإن جل دور دمشق حولت إلى موارد اقتصادية في شكل مطاعم أو غيرها من النشاطات الأخرى. وهذه الفكرة جيدة بحيث تسمح للزائرين على اطلاع على نكهة تاريخ دمشق و عبقه.

متوّج بإفريز قليل البروز ومحاط بحجارة مزخرفة من الجهتين أما العقد المنخفض لإطار الباب المصنوع من الحجر تعلوه حجارة متقطعة على شكل معين منقوش عليه نجمة ذات ست رؤوس.

أما باب الدار فهو مصنوع من الخشب، ويتكون من مصراع واحد كبير، وبداخله مصراع آخر صغير الحجم لاستعمال اليومي. ويعلو الإطار الحجري للباب نافذة عالية لتهوية وإضاءة رواق المدخل (الدهليز).

وهذا الدهليز عبارة عن رواق مجزأ إلى قسمين (ج وع)، فالرواق (ج) مرتفع بارتفاع طابقي، وسقفه من جذوع شجر الحور، وهو خال من الزخرفة. وكان هذا الرواق متصلا مباشرة بالصحن الصغير (ي)، المنفصل حاليا عن الدار.

ومن خلال الرواق (ج) مرورا بالرواق (ع) عبر كوة ذات عقد موتور نصل إلى الزاوية الجنوبية الغربية للصحن الذي يصل علو سقفها إلى طابق واحد، وهو مدعم برافدات من جذوع شجر الحور، ملونة باللون الأزرق[46].

إنّ دار جبري حاليا مقسم إلى قسمين، لكن الزاوية الجنوبية الغربية والصحن الصغير الذي كان بمثابة حرملك سابقا، لم يعد لهذا الجزء أية علاقة مباشرة بالهيكل الأساسي للدار و ذلك راجع لكون العقد الذي كان يربطهما بالطابق الأرضي قد سدّ. ويحتوي هذا القسم كذلك على مدخل مستقل يطل على الطريق مع دهليز يؤدي إلى الصحن.

شُيّد دار جبري حول فناء مكشوف مستطيل الشكل، محاط بأربع أشجار البرتقال يتوسطه حوض كبير بيضوي، مخروطي الشكل مادته من الرخام الوردي. يشغل هذا الفناء ربع المساحة الكلية لأرضية الدار، و يؤدي الفناء دور توزيع غرف الطابق الأرضي و العلوي مثلما هو الحال في كل الدور الدمشقية أو الدور الحلبية أو دور مدينة الجزائر(لوحة رقم 01).

ذلك أنه من القيم المعمارية في المدينة الإسلامية هو توجيه المباني إلى الداخل الذي يعبر عن طبيعة الحياة الاجتماعية والظروف المناخية، الأمر الذي استبدل معه الفراغ الخارجي بالأفنية الداخلية، حتى تستوعب النشاط الخاص بالسكان، لذلك يعتبر فناء الدار من أهم مميزات عمارة الدور العربية والإسلامية، إذ يجعلها أكثر انسجاما مع ظروف المناخ، كذلك هو القسم الأساسي في الدار، وبدونه لا يمكن أن تكون الدار عادية ومألوفة، فهو جنة أهل الدار ومنتزههم في الصيف والشتاء، وموضع رعايتهم من ناحية الترتيب والنظافة والزينة[47]

هناك عنصران يشغلان حيز الفناء المكشوف (الصحن)، هما:

---

[46] Nada Alhassan,op, cit, pp 43.44

[47] - عبد الباقي ابراهيم ؛ تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة، د، ت، ص 53 و محمد زكريا كبريت، مرجع سابق، ص 59

الإيوان جنوبا والقاعة الكبيرة شمالا[48]، ونجد شرقا و غربا قاعات تحيط بصحن الطابق الأرضي وتحدد محيطه.

أ - الواجهة الجنوبية والإيوان:

تحتوي الواجهة الجنوبية على أهم عناصر الصحن **الإيوان** (ب) الذي ينفتح في مركز الواجهة على الصحن من خلال عقد متجاوز منكسر، يبلغ علوّه أكثر من 10أمتار، موجه نحو الشمال حيث يتمتع بظل وإضاءة مستمرة.

يشكل الإيوان وحدة محجمية (unité volumétrique) بارزة الوضوح من خلال غرفتي التوأم (أ) و(س)اللتان تحيطان بالطابق الأرضي شرقا و غربا.

غير أن السقف الخشبي لإيوان دار جبري في حالة مزرية، ذلك أن تصاوير السقف انمحت مع مرور الزمن، وما بقي إلا الرافدات الخشبية عليها بعض آثار التصوير، بينما بقيت الجوانب الأربعة للسقف مثبتة على مقرنصات[49].

أما عن الغرفتين (أ) و(س) فهما متشابهتان إلى حدّ بعيد خاصة في تصوير وشكل سقوفهما المتشابهة تماما.

وفيما يخص جدران الغرفتين (أ)و(س) فتندمج فيهما مشكاوات عديدة، مستطيلة الشكل وبسيطة جدا على نفس علو التدعيمات الموجودة حول النوافذ، ومؤطرة بأطر خشبية ملونة باللون الأخضر. الغرفة (أ) مدهونة بملاط بين الأرضية والمشكاوات، ويوجد على وكيئة (قسم من الجدار يقع تحت منكأ النافذة) النوافذ مربعات خزفية عثمانية من القاشاني ذات الزخارف النباتية والهندسية المجردة. وللأسف تعرضت هذه المربعات إلى النهب، وما بقي منها إلا القليل.

---

[48] - القاعة هي على شكل حرف (T) ، وهي عبارة عن صالون مشكل من ثلاثة فروع بأرضية مرتفعة قليلا. و أن هذا النوع من القاعات هو خاصية الدور الطبقة الثرية والجميلة والكبيرة أيضا سواء في مدينتي دمشق أو حلب. ويصف جون دافيد في مقاله هذه القاعة بما يلي: « تعتبر هذه القاعة أو ما يسمى (بالصالون) من أفخر قاعات الدار، وأجملها على الإطلاق، وهي غنية بالزخارف، ومبلطة الأرضية بالرخام، ومرصعة بالأحجار الملونة، و مكسية السقف والجدران بالخشبيات المنحوتة والمصورة بالألوان الزاهية، ويكون سقف القاعة إمّا على شكل حقول مستطيلة أو قبة متصالبة تجمع أطراف القاعة التي تأخذ شكل الصليب حول العتبة.» يراجع؛

Jean claude David; « Alep,dégradations et tentatives actuelles de réadaptation des structures urbaines traditionnelles. ». In bulletin d'etudes orientales, t .XXVIII,1975 , p. 23

- David; "Alep…. ".In.. op, cit., p: 24

[49] - المقرنصات عبارة عن حليات معمارية وإنشائية مركبة الوحدات الزخرفية، وتتكون من حنايا صغيرة مقوسة تشبه المحاريب يتدلى بعضها فوق بعض في طبقات وصفوف متعاقبة تناوبا على بعضها البعض. ويبدوا أن تاريخ ظهور هذا العنصر الزخرفي غير واضح فبعض الباحثين يرى أنّ ظهوره كان في آسيا وبالضبط في نيسابور بالمنطقة الشرقية من بلاد فارس (3هأ/ 9م) أو في القرن (4هأ/ 10م)أكثر تفاصيل أنظر؛ لطيفة بورابة؛ « نماذج من الزخرفة الهندسية في عمارة جامعي أبي مدين والحلوي بتلمسان» . في أعمال ملتقى دولي بتلمسان (تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج1، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011، ص 239

والجدير بالملاحظة أن القاعة (أ) تتصل فقط بالإيوان بينما القاعة (س) بالإيوان والدهليز الذي هو رواق المدخل في آن واحد.

وفي الواجهة الشمالية نجد أساسا القاعة الكبرى أو قاعة الاستقبال الكبرى، وفي الطابق الأرضي للقاعة (ت) (ل) نجد غرفا مقببة، وقصيرة العلو، وتشكل الهيكل الحامل للقاعة وترتفع الواجهة الشمالية للقاعة المطلة على الصحن إلى ثلاثة طوابق.

كما نجد في مركز الواجهة (واجهة القاعة) مصعدين مباشرين (مستقيمين) متكئين عليها يبلغ علوهما نصف الطابق من جانبي المحور التناظري، يؤديان (هذين المصعدين) إلى سطح مدخل الغرفة. تتكون العتبة الأولى من مصعد من الرخام الوردي، أما بقية الأدراج فمن الحجر الكلسي (الرملي).

إن تخطيط القاعة الكبرى على شكل حرف (T) عتبتها[50] مدعمة بتزارين(Tazars)

[51]شرقا وغربا، وثالثهما شمالا. (لوحة رقم 02) ومزدانة بزخارف متنوعة، ويفصل القاعة عن كل تزار عقد منكسر، ومفاتيح هذه العقود مزخرفة بنجيمات هندسية. وللإشارة فإن العتبة المندمجة في السطح تشكل النتوء الأكثر بروزا في القاعة، وهي مكسية ببلاط من الرخام ويشغل مركز القبة فسقية مضلعة الشكل(لوحة رقم 3).

ب - الواجهة الغربية، والقاعة الصغيرة:

تشغل الواجهة الغربية لدار جبري غرفة (ف)وقاعة صغيرة للاستقبال، تتكون أطر أبوابها من الحجر، وتحمل زخارف مماثلة لتلك التي نراها على النوافذ، وعلوها كوة مفصصة ذات الشكل الإهليليجي ، أما الزخرفة الرمزية التي نحتت على مفتاح العقود فهي عبارة عن صدفة، في حين أن مفتاح عقود النوافذ تمثل عناصر زهرية محورة.

أما أطر بالغرفة (ف) تحمل ثلاث صفائح من الرخام الأبيض، كل واحدة منها مزودة في مركزها بقلادة من الرخام الأبيض المنحوت.

إن الغرفة (ف) ذات سقف خشبي خالي من التصاوير ، وتحتوي على مدخلين أحدهما متصل بالصحن والآخر بالرواق، و يبدو أن سقف هذه الغرفة حديث العهد.

---

[50]- العتبة، ممر أو فضاء مبلط، مربع أو مستطيل الشكل، توجد في مدخل الغرفة أو غرفة الاستقبال وعلى مستوى أرضية الغرفة تازار. وتستعمل العتبة للزوار لوضع أحذيتهم، كما نجد أن مادة الحجر والرخام هما الكثر استخداما في كسوة العتبة، يراجع؛

- Denis Piponnier, Anne Rouanet ; "Etude iconographique et technique d'un ensemble décoratif : la maison nlizam à Damas". In Bulletin d'études orientales T. XXXVIII - XXXVIII, p . 158

و - محمد زكريا كبريت، مرجع سابق، ص70

[51]- تازار، الجزء المرتفع داخل القاعة،و المخصص للجلوس،ويسمى المجلس حيث يتوزع الجالسون على شكل حلقة مفتوحة من جهة العتبة فيستطيع جميع الحضور الرؤية، ويتراوح الاختلاف في المستوى الأرضي بين 5 إلى 10 سم، ويمكن أن تصل من 40 إلى 50 سم، وتميز أرضية التازار بعدم تبليطها، يراجع؛

- D.Piponnier et A.Rouanet : Op, cit, p . 158

إن الشيء الوحيد الذي يوحي بالثراء الزخرفي في هذه الغرفة هو التبليط الفسيفسائي من مادة الرخام المتعدد الألوان المرصع بالصدف، والذي يحمل زخارف هندسية.

قاعة الاستقبال الصغيرة (ش) (د): إن الواجهة التي تحتضن هذه القاعة الصغيرة تتكون من مدخل يؤدي إلى العتبة (ش) و المدعمة من جهة العتبة و التزار بنافذتين مزيتين بالأبلق.[52]

و تتكون هذه القاعة الصغيرة من عتبة وتزار واحد مرتفع يمتد على طول الواجهة المطلة على الصحن. أرضية العتبة مزخرفة بشكل تلبيسة من الرخام المتعدد الألوان ذات النماذج الهندسية، وفي مركزها توجد فسقية[53] مضلعة الشكل ، أوجهها مغطى بصفائح مستطيلة من الرخام الأسود والأبيض والصدفي. والجدران الثلاثة للعتبة تحتوي على زخارف رسمت بالمواد المعدنية على خلفية زرقاء رمادية ذات بطانة شفافة (الشيء الذي منحها شكلا لامعا)، مزخرفة بتصاوير جدارية، تغطي الجزء الأكبر من جدران العتبة، وهي توق لتجاويف الجدارية، والمشكاوات على شكل عقود وأفاريز وركنيات وحقول وأشرطة مستطيلة الشكل، ومن بين النماذج المجسدة عليه نذكر عنصر القلادات، والمراوح، والمزهريات التي تحتضن باقات من الورود المحورة.

والجدير بالذكر أن هذه القلادات تحمل رسومات تمثل المظاهر العمرانية كالمآذن، والدور ذات السقوف الثنائية، وهي أعمال معروفة منذ العهود الإسلامية الأولى كالمواضيع الفسيفسائية بالمسجد الأموي التي تناولت صور طبيعية من بساتين وأشجار وأنهار جارية، ومن دور بل مدن رسمت كما لو أنها قصور محصنة عالية.[54]

أما تزار هذه القاعة فمرتفع بارتفاع 30 سم عن مستوى أرضية العتبة، ويفصل العتبة والتزار عقد منكسر متجاوز.

هذا إلى جانب التصاوير الجدارية التي تكتسي واجهات جدرانه الثلاثة، وهي نفس الزخارف المرسومة على جدران العتبة تمثل باقات الورود، والقلادات.

---

[52]- يأتي لفظ الأبلق في المصطلح الأثري للدلالة على مداميك حجرية في واجهات الأبنية الأثرية المختلفة، تتبادل اللونين الأبيض والأسود أو اللونين الفاتح والداكن، وأوّل حصن بني بنظام الأبلق في شمال الجزيرة العربية خلال القرن الخامس الميلادي، على رأس تلة تطل على واحة (تيماء)، هو حصن السموال بن عاديات الذي عرف بالأبلق الفرد. وانتشر هذا الأسلوب البنائي الجديد في العمارة الإسلامية بالشام، نظرا لتوافر كل من الحجرين الجيري الأبيض والبازلت الأسود فيها، ولعل أشهر قصر بني بهذا الأسلوب المعماري من أحجار بيضاء وسوداء بالتبادل هو قصر الأبلق في مدينة دمشق الذي بناه السلطان الظاهر بيبرس سنة 665 هـ / 1266م، وكان مضربا للمثل لقوة بنائه، ومقاومته لأي هجوم حتى هدمه تيمورلنك سنة 803 هـ / 1400م، أنظر؛

- رزق (عاصم محمد) ؛ معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، 2000، ص 10

[53] - الفسقية عبارة عن بحرة رخامية صغيرة تتوسط العتبة بغية تلطيف الجو واستمتاع الضيوف بالمنظر المائي، أنظر؛

- محمد زكريا كبريت، مرجع سابق، ص71

[54] - عفيف البهنسي، المرجع السابق، ص 140

ومما تقدم ذكره أن دار جبري عولجت بما هو متعارف عليه في جميع المسائل الضبطية من وحدة الشكل الخارجي إلى التصميم المعروف في النمط المعماري، وتزويدها بالرفه الفني المشبعة بكل مظاهر الحياة الحضارية وبكل جوانبها المعبرة عن حياة المجتمع في ذلك الوقت. وتبقى هذه الدار شاهدة على مقدرة وذكاء المعماري المبدع في مجاله الفني، ذو الطابع الشرقي الإسلامي الذي كان يراعي في تصاميمه قوانين بيئته المحافظة والمتدينة.

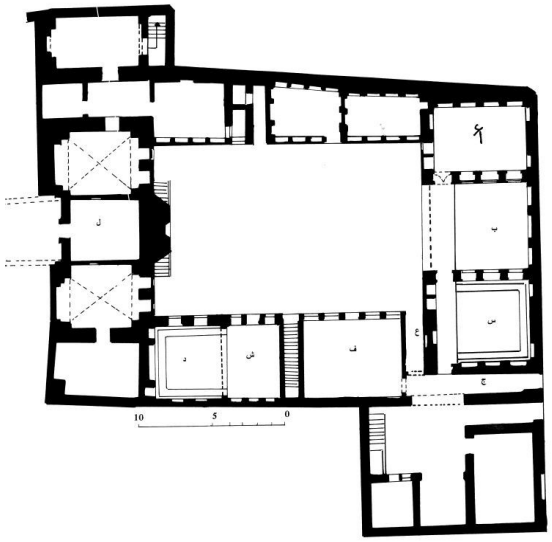

مخطط رقم(2): الطابق الأرضي لدار جبري ع/ ز. م كبريت

لوحة رقم (01): إيوان دار جبري(منظر من الصحن)

لوحة رقم (02):منظر داخلي للقاعة

لوحة رقم (3):فسقية القاعة الكبرى ذات زخارف هندسية

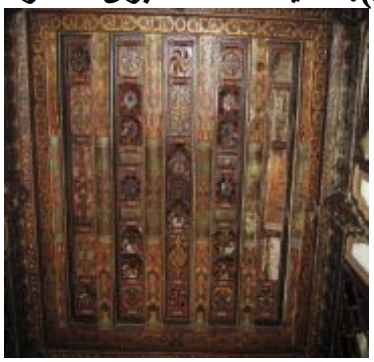

لوحة رقم(4) : تصاوير سقف القاعة الكبرى